الشاهنامة إحدى روائع الأدب العالمي

عبد الرحمن العلوي
كاتـــب وأديـــب

الفردوسي اسم لامع ليس في الأدب الايراني فحسب، وانما في الأدب العالمي ايضاً، وتعود جل شهرته لملحمته «الشاهنامه» التي تُعدّ رائعة عالمية تقف الى جانب روائع عالمية اخرى كالالياذة والاوذيسة لهوميروس، بل عدّها البعض اكثر روعةً وأوسع اطاراً وأجزل شعراً من هاتين الرائعتين اليونانيتين ومن رامايانا ومهابهارتا الهنديتين، لأنها في الحقيقة ديوان من الملاحم والقصص والفنون الادبية والفلسفية والحكمية، نظمت بحيث اصبحت تاريخاً لشعب متحضر عريق، وصورت مختلف جوانب حياته في مختلف العصور، ورسمت بأروع ريشة فنية اهدافه، وآماله، وانتصاراته، ومحنه، ومآسيه، وأخلاقه، وعاداته، وتقاليده، وعقائده، وكافة الملامح الايرانية[١].

ولد الحكيم ابو القاسم الفردوسي في العقد الثالث من القرن الرابع الهجري (بين ٣٢٥ و٣٢٩ هـ) في قرية باج ـ من قرى طوس ـ في اسرة اقطاعية متمولة، وتوفي في عام ٤١١ أو ٤١٦ هـ اسمه المنصور بن الحسن كما ورد في الترجمة العربية للشاهنامة التي قام بها الفتح البنداري. وذُكرت له أسماء اخرى مختلفة باختلاف التراجم كالحسن بن علي، والحسن بن اسحاق بن شرف شاه. ويبدو انّ هناك اتفاقاً على كنيته (أبي القاسم) وعلى تخلصه (الفردوسي)[٢].

وُلد الفردوسي في السنوات الاخيرة من عمر واحد من اعظم الملوك السامانيين وهو الأمير نصر بن أحمد، أي انه قد امضى السنوات الاولى من طفولته في عهد كانت تخامر امراءه نزعة قومية، وهو أمر قد ترك تأثيره عليه ايضاً سيما وانه وُلد كما قلنا في اسرة اقطاعية لازالت تعيش رغم انتمائها للاسلام تحت تأثير العادات والتقاليد القديمة مثل باقي الأسر الاقطاعية والريفية. ولا شك في ان جزءاً من هذا الميل كان ناشئاً من الشعور بالاحترام الطبيعي لسنن الأجداد، وتمجيد العصر التليد، والاعتزاز بالثقافة القديمة[٣].

الفردوسي وقبل أن ينبري لنظم الشاهنامه ـ وأيضاً

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-29]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1422.8.4.1.9]

خلال فترة نظمها الطويلة ـ كان يشاهد عن كثب التطورات السياسية التي طرأت على ايران عموماً وعلى اقليم خراسان خصوصاً، لا سيما انقراض السلالة السامانية ذات الاعتداد القومي والتي يقول المؤرخون انها تنتسب الى «بهرام جوبين» الزعيم الساساني. ويُقال انّ جدها «سامان» قد عاصر عهد هارون الرشيد وكان مجوسياً في بداية الامر[٤].

وكانت هذه الاسرة تبدي رغبة عظيمة في احياء ما لا يتعارض مع الاسلام من السنن والآداب والتقاليد الايرانية القديمة[٥].

وفي ظل هذه الاوضاع ترعرع الفردوسي، فتفتحت عيناه على الاسلام من جهة، وعلى النزعة نحو التراث من جهة اخرى، ولا شك انّ هذا قد ترك أثراً بارزاً عليه، وأخذ ينمو في نفسه انشداد كبير نحو الحضارة الفارسية القديمة، وتتفجر في روحه رغبة كبيرة نحو تخليد التراث الفارسي بالطريقة التي لم يكن يجيدها غيره آنذاك، ألا وهي لغة الشعر.

ورغم كلّ ما كان لدى الفردوسي من نزعة قومية واعتزاز بالماضي الايراني، وتأكيد على احياء اللغة الفارسية والتراث الفارسي بواسطة اللغة الشعرية، إلّا انه لم يتنصّل عن دينه الاسلامي، رغم كل ما قيل على هذا الصعيد من قبل الكثيرين، فهي أقاويل تكذبها الشاهنامة نفسها، لا سيما وأن اول دروسها وآخرها دروس في الثناء على الله تعالى، والتحدث عن التوحيد. فالفردوسي يؤكد وبلغة شبيهة بلغة الفلاسفة ان الله تعالى خالق الروح، والعقل، والزمان، والمكان، ومالك الشمس، والقمر، وزحل، والزهرة، ورب السماوات والعالمين، وانه الرب الذي يشهد على وجوده التراب، والهواء، والماء، والنار، وكافة العناصر. كما يتحدث بلغة العرفان عن ان الله قد أوجد العالمين، واللوح، والقلم بكلمة «كن»، وانه غير محتاج، وقدير، ولا شريك له ولا شبيه[٦].

وفي نفس الشاهنامة، لم يعبّر عن ايمانه بالله تعالى فقط، وانما هناك العديد من الابيات التي يعبر فيها عن اعتقاده بالرسول محمد (ص)، والقرآن، والدين الاسلامي، ويشيد ببيت الله الحرام والكعبة المشرفة[٧].

وهكذا نجد تفاهة الاتهامات التي وجهتها بعض المصادر للفردوسي مثل القرمطة، والباطنية، والمجوسية وغيرها. وقد ورد على هذا الصعيد في المقدمة النثرية للشاهنامة ان الفردوسي قد اتُّهم لدى السلطان محمود الغزنوي بالقرمطة، فلما بلغ الفردوسي ذلك، انطلق نحو السلطان ووقع على رجليه قائلاً: انها تهمة كاذبة ولست قرمطياً. فرقّ له السلطان، إلّا انه قال له:

اذا كان ولابد فاعزب عني لكي لا أراك[٨]. ولو صحت هذه الواقعة فانها تشير الى ما كان يحوكه خصومه من مؤامرات ودسائس للايقاع به.

الخلفية التاريخية للشاهنامة

يبدو أن كتابة ما يُعرف بـ«الشاهنامه»[٩] كان امراً شائعاً لدى الكتاب الايرانيين خلال اواخر العصر الساساني وبداية العصر الاسلامي. وقيل بهذا الشأن ان الملك الساساني خسرو برويز قد امر بجمع الأساطير الايرانية التي كانت تتناقلها الأفواه أو مبعثرة هنا وهناك، في كتاب واحد. وقيل ايضاً ان ذلك قد جرى في عهد حفيده يزدجر شهريار الذي حكم ايران خلال الفترة ٦٣٢ ـ ٦٥١ م. ولكن لا يوجد هناك مصدر يتحدث عن هذا الكتاب أو المصير الذي آل اليه.

وقد اطلع العالم الاسلامي على الأساطير والقصص الايرانية من خلال بعض المعربين الايرانيين، ويقف ابن المقفع[١٠] على رأسهم. ومن اشهر الكتب التي ترجمها ابن المقفع كتاب «كليلة ودمنة». كما قيل انه قد ترجم كتاب «سيرة الملوك» إلّا ان هذه الترجمة قد فُقدت كما هي الحال بالنسبة للأصل الفارسي[١١].

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-29]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1422.8.4.1.9]

وتُعدّ شاهنامة أبي المؤيد البلخي ـ الكاتب والشاعر المعروف في مطلع القرن الهجري الرابع، اول كتاب في «سير الملوك» لدينا حوله معلومات واضحة. وأبو المؤيد البلخي هذا هو نفسه الذي نظم لأول مرة قصة «يوسف وزليخا» بالفارسية، كما له كتاب تحدث فيه عن عجائب مخلوقات البر والبحر. وعُرفت الشاهنامة التي ألّفها بـ«شاهنامة المؤيدي». لكنها هي الاخرى لم تكن احسن حظاً مما سبقها، فقد ضاعت بعد القرن السادس الهجري ولم يُعثَر لها على خبر[١٢].

وكُتبت بعض الكتب نظماً ونثراً بالفارسية في القرنين الهجريين الثالث والرابع، كانت ذات صلة ايضاً بقصص الابطال الايرانيين القدماء، مثل «غرشاسب نامه» والتي يُعتقد انها نفس شاهنامة المؤيدي. وفي مطلع القرن الرابع الهجري ظهرت الى الوجود شاهنامة شعرية لشاعر يدعى مسعود المروزي لم يصل الى ايدينا منها سوى اربعة ابيات فقط[١٣]. وتُعد الشاهنامة المعروفة بـ«شاهنامة ابي منصوري»، اهم الشاهنامات في تلك الفترة. وهي شاهنامة نثرية قيل انها أُلفت في عام ٣٤٦ هـ بناءً على أمر من قائد جند خراسان[١٤].

وبُعيد شاهنامة ابي منصوري تُرجم كتابان من العربية الى الفارسية وهما: تفسير الطبري، وتاريخ الطبري[١٥]، تطرقا الى شيء من التاريخ الايراني القديم، ولا شك في ان الفردوسي قد اطلع على هذه الكتب الثلاثة التي ذاعت في ايامه. وهناك تفاوت رئيسي بين شاهنامة ابي منصوري وتاريخ الطبري (البلعمي) يتمثل في ان الاولى اختصت بتاريخ ملوك ايران وانفردت بالحديث عن التراث الايراني، في حين كان تاريخ الطبري عبارة عن سرد لتاريخ كافة الملوك والامم قبل الاسلام.

وانبرى خلال تلك الفترة شاعر من شعراء البلاط الساماني يدعى «الدقيقي» لنظم شاهنامة مستوحاة من شاهنامة ابي منصوري النثرية، بتشجيع من الامير الساماني نوح بن منصور (٣٦٥ ـ ٣٨٧ هـ)، إلّا انه لم يكد ينهي ٩٩٠ بيتاً منها حتى اغتاله غلامه عام ٣٦٨ هـ وهو في ريعان الشباب. فانبرى الفردوسي لاكمال ما لم ينجح الدقيقي في اكماله.

ويتساءل البعض: هل ان الفردوسي قد صاغ ملحمته الشعرية اعتماداً على شاهنامة ابي منصوري؟

ويجيب الاستاذ مينوي: انا لا ادري، وليس لدي وسيلة للقطع بذلك، ولكن عندي كتاب اسمه «غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم» منسوب الى ابي منصور الثعالبي[١٦]، وقد أشار الى شاهنامة ابي منصوري، ويبدو انه كانت لديه نسخة منها، وأنا احتمل ان جل ما جاء في كتابه، استخرجه من هذه الشاهنامة ...»[١٧]. ويريد مينوي ان يقول بأن شاهنامة ابي منصوري هي المصدر الوحيد الذي كان قد انفرد بايران ما قبل الاسلام آنذاك، ولابد للفردوسي ان يكون قد اعتمد عليها في شاهنامته أيضاً، وان لا يبدو بعيداً اعتماده على مصادر تاريخية اخرى كمصنفات الطبري وابن خرداذبه.

ملامح الشاهنامة

الشاهنامة ليست افضل نموذج وأسمى عينة للفصاحة الأدبية الشعرية فحسب، وانما هي امام في النظم والنثر الفارسيين. وهي بايجاز كتاب أدبي حافل بالملاحم الوطنية، وفنون الفصاحة والبلاغة، وكنز من المفردات الفارسية[١٨].

وتبدأ الشاهنامة وطبقاً لما هو متعارف آنذاك باستمداد العون من الله تعالى لانجازها وهو ما يُعرف بالديباجة. والديباجة نوع من البيان الشعري في قالب الدعاء والتضرع. وتتحدث الشاهنامة خلال تلك الديباجة عن خلق العالم، وخلق الناس، ووصف السماء والشمس والقمر، ومن ثم امتداح الرسول (ص) وأهل بيته (ع)، وتنتهي بمدح السلطان محمود الغزنوي.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-29]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1422.8.4.1.9]

واسلوب بيان الفردوسي في الشاهنامه بسيط، وواضح، وموجز، وبعيد كل البعد عن التزويق اللفظي والحشو الزائد الممل. وقد وصل ايجازه فيها الى حد الاعجاز. وظهرت القصص في أدق صورة، وأروع عبارة مع احتفاظها بسلامتها التأريخية. وهذا ما يعبّر - في الحقيقة - عن الأمانة والنزاهة اللتين كان عليهما الفردوسي، ناهيك عن عبقريته في الحفاظ على روح النص من جهة، وروعة الشعر وجمال الايقاع من جهة اخرى. ولعل الذي صدّ عن الشاهنامه الانقراض والضياع - الذي كان مصير الشاهنامات الاخرى - هو قوة بيانها وجزالة عبارتها[١٩].

وهي في حقيقة الأمر ليست كتاب قصة وتاريخ وأدب فحسب، بل موسوعة كبرى في الفلسفة، والاخلاق، والحكمة، والعقائد وغيرها ايضاً. كما انها لم تنحصر ضمن تصوير جانب أو شكل واحد من اشكال الحياة الايرانية القديمة، وانما صورت لنا وبأجمل صورة وأروع كلمة، الرسوم والآداب والعادات والتقاليد القديمة ايضاً كالزواج، والسفارة، والصيد، وحيل الحرب، ومعاملة الاسرى، واسلوب كتابة الرسائل، وطريقة استخدام المعدات الحربية وآلات القتال، والعلاقات التي كانت قائمة بين الامم والدول وغيرها من الشؤون التي لا مجال لذكرها[٢٠].

ومما امتاز به الفردوسي في الشاهنامة، عفة اللسان، وبعد الرأي، ورقة القلب، ولطافة الحس، وسلامة الذوق، وحكمية الطبع. وقد حاول ان يُفهمنا من خلال شاهنامته ان من يزرع العمل السيئ لا يجني إلّا سوءاً، والطريق الأعوج لا يوصل الى الهدف[٢١]. ولذلك يُعد الايمان بالاصول الاخلاقية، احدى أعظم خصال الفردوسي التي تجلت في شاهنامته. فهو لم يأت فيها بأي لفظ ركيك ولا كلام مستهجن. وقدّم نصائحه القيمة بعبارة بليغة مؤثرة، بحيث لا يسع المرء سوى التأثر بها[٢٢]. ولذلك فقد تحول الكثير من أبيات الشاهنامة الى أمثال تتناقلها ألسن الايرانيين[٢٣].

وانعكست الروح الاخلاقية التي كانت لدى الفردوسي، على شخصيات ملحمته، فنلاحظ ان جوهر عقائد ملوك وأباطرة وأبطال الشاهنامة لا يختلف عن مبادئ العقائد الاسلامية، رغم ان هذه الشخصيات كانت تعيش في عصور ما قبل الاسلام. فنشاهد فيها عقائد شبيهة أو قريبة من العقائد الاسلامية كالايمان بالله الواحد المنزّه، والقضاء والقدر، ويوم البعث والنشور. فالفردوسي لم يكن جاهلاً عند نظم الشاهنامه بالأخبار الايرانية القديمة والعقائد التي كان عليها ملوك ايران، غير ان عقائد المجتمع الاسلامي أملت عليه ان يضفي على شخصيات ملحمته ما ينسجم مع الخلق والعقائد الاسلامية[٢٤].

اما حول واقعية ام عدم واقعية شخصيات الشاهنامة، فقد سعى بعض المتأخرين ان يطابقوا بين الاحداث الواردة في الشاهنامة وبين الوقائع ذات الصلة بالعصر الأخيميني (الهخامنشي)، ولذلك اعتبروا الملوك الذين تحدثت عنهم الشاهنامة، نفس ملوك ذلك العصر. غير ان هناك من يقول أن شخصيات مثل جمشيد، وفريدون، وكاووس، شخصيات اسطورية آرية مشتركة بين ايران والهند. وأنها ترجع الى مرحلة ما قبل الهجرة الآرية الى ايران والهند[٢٥].

وليست هناك وثيقة تاريخية تؤكد على وجود حقيقي لملوك الشاهنامة. ويبدو ان الفردوسي نفسه كان مدركاً لهذه الحقيقة، حيث نراه عند اشارته الى ابيات الدقيقي يقول: «فسانه كهن بود ومنثور بود»، أي انه يشير الى اسطوريتها. ويقول بعض الباحثين: «ان هؤلاء السلاطين ليس لهم أي وجود خارجي. ولو كان لهم وجود خارجي، فان زمانهم، ووقائع حياتهم، وأعمالهم، تختلف كلاً أو بعضاً مع ما ورد في الكتب العربية والفارسية. وانني على يقين من ان هؤلاء لا تربط بينهم أية صلة قرابة، ولم يعيشوا في عصر

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-29]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1422.8.4.1.9]

واحد»[٢٦].

وينظر البعض الى الشاهنامة كتراجيديا والى الفردوسي ليس كأعظم اساتذة التراجيديا في الأدب الايراني فحسب، وانما هو في مستوى سوفوكلس، ويوري بيدس، وشكسبير[٢٧]. والتراجيديا كما وصفها ارسطو في كتاب البوطيقا بأنها عبارة عن تقليد ومحاكاة لعمل ضخم متكامل الأحداث، يستثير شفقة المتفرجين، وينفّث عن انفعال الخوف لديهم وتترتب أحداثه بشكل معين هو الحبكة، وهي اهم عناصره. ويأتي رسم الشخصيات بعدها في الأهمية. وقال شوبنهاور بأن التراجيديا أو المأساة هي الفن الذي يعكس الجوانب المفجعة في الحياة التي تتمثل في الآلام الانسانية التي تجل عن الحصر، وفي السقوط الذي يتردى اليه في النهاية كل العادلين والابرياء. وازاء ذلك لم يعد امام الانسان من سبيل لتغيير هذا المصير المحتوم إلّا بتصويره وتمثيله. فبالفن العظيم يكون الخلاص من هذه الحياة المحكوم علينا بها[٢٨].

وقد تصدق التراجيديا على بعض فصول الشاهنامة لاسيما الموقف الذي اصطدم فيه البطلان الأب والابن، رستم وسهراب - ومقتل الابن على يد الاب دون ان يعرف احدهما الآخر. وكذلك الموقف الذي التقى فيه العملاقان رستم واسفنديار ومقتل الأخير على يد الاول، اذ تُعد مثل هذه الاصطدامات من اعمق الصراعات النفسية في المنظومة، والتي يمكن ان تقدّم لنا تراجيديا واقعية تطفح بالعناصر المأساوية البليغة. ويعتقد الفيلسوف الألماني هيغل ان اعظم التراجيديات هي تلك التراجيديا التي يكون موضوعها صراعاً بين فئتين أو جانبين يرى كل منهما نفسه على حق فيه، ثم تلحق المأساة بالجانبين كليهما[٢٩]. وقد ينطبق هذا الوصف على بعض صراعات الشاهنامه.

أما عن طبيعة رؤية الفردوسي للتاريخ في ملحمته، فيتحدث عنها الدكتور عباس زرياب حينما قارن بين اثري الفردوسي والطبري، قائلاً: «ان فهم الفردوسي للتاريخ ذو طابع ملحمي في قالب ملحمة امة ما: هذه الامة في قلب العالم، والامم الاخرى تحيط بها وتطوقها وتنظر اليها بعين ملؤها الاحترام. والتاريخ من وجهة نظره لا يبدأ إلّا بكيومرث أول امبراطور ايراني وعالمي. وعظمة تاريخ العالم تتمثل في عظمة تاريخ ايران، وافول عظمة ايران تعني افول عظمة العالم ... فالفردوسي يفهم التاريخ على انه ملحمة الشعب الايراني ولا يمكن للملحمة ان تكون مستمرة كالتاريخ ... ويمكن ان نقيس هذا الفهم الذي كان عليه الفردوسي بالفهم الذي كان عليه المفكر الألماني الشهير شبنغلر الذي يرى ان تاريخ العالم لا يمكن أن يُقال عنه انه بدأ من نقطة معينة وانتهى الى عصرنا الراهن، بل ان التاريخ هو المدنيات والحضارات المنفصلة والمستقلة عن بعضها. ولكل حضارة شخصية حية تتمتع بخصائص مستقلة، أي انها كالكائن الحي الذي لديه مراحل حياتية خاصة به تبدأ بالولادة والطفولة والصبا، وتمر بالبلوغ والشيخوخة، وتنتهي بالموت. واذا كان هناك شبه بين الحضارات المختلفة، فهو في الصورة لا غير، مثل اي شبه بين كائن حي وآخر ... ومن له اطلاع على آراء شبنغلر ويقرأ الشاهنامه يدرك ان الحضارة التي نشأت في ايران على يد كيومرث وهوشنغ وطهمورث وجمشيد، تعد المرحلة الطفولية للحضارة، ثم وصلت بعد انقضاء فترة متأزمة الى مرحلة الصبا على يد فريدون وايرج ومنوجهر، ثم بلغت فترة الشباب في عهد كاووس وكيخسرو ورستم. وبلغت المرحلة العقلانية وفترة الكهولة بظهور زرادشت وغشتاسب، وشهدت هذه المرحلة ذروتها في عصر الساسانيين سيما في عهد انوشيروان. ثم بدأت بعد خسرو برويز فترة الضعف والانحطاط بشكل سريع، وماتت تلك الحضارة في معركة القادسية ...»[٣٠]. وخلاصة ما يريد ان يقوله الدكتور زرياب ان

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-29]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1422.8.4.1.9]

الشاهنامة ليست تاريخاً وانما هي تعبير عن المصير والتقدير، أي اننا نشاهد فيها الأحداث والوقائع مصيراً محتوماً ومقدراً. وهو ما يمكن ان يلتقي مع التعريف الذي قدمه شوبنهاور للتراجيديا.

ومهما قيل من تحليل ومهما طُرح من رأي، فقد استطاع الفردوسي من خلال ما يقرب من ٦٠ ألف بيت شعري على وزن عروضي واحد ـ البحر المتقارب ـ ان يقدم أروع الاساطير العالمية بالاستعانة بفكره الخلاق الرائع ويعرضها في اطار مدهش وايقاع أخاذ، بحيث اصبح هذا العمل الادبي الكبير مُلهماً لعدد كبير من الشعراء والمفكرين عبر مختلف العصور، حتى ان المستشرق الانجليزي كوويل (cowell) قال فيها: «لقد استلم اوغسطوس روما من الآجر وسلّمها من المرمر. كذلك الفردوسي وجد بلده بدون أدب تقريباً، فسلّم اليه الشاهنامة التي لم يستطع الادباء من بعده سوى تقليدها، دون ان يتفوق أحد عليها. انها ملحمة بامكانها ان تنافس كل أثر، ولا نظير لها في آسيا كلها مثلما هو حال ملاحم هوميروس في اوربا»[٣١].

موقف السلطان محمود من الشاهنامه

عندما أسقط السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي الدولة السامانية في ٣٨٩ هـ كان الفردوسي قد امضى حوالي عشرين عاماً في نظم الشاهنامة، والتي اكملها خلال ثلاثين عاماً كما أشار هو الى ذلك في الشاهنامة نفسها. وعندما فرغ الفردوسي منها في عام ٤٠١ هـ أو ٤٠٢ هـ حملها الى البلاط الغزنوي بعد أن اقترح عليه ذلك الوزير الايراني ابو العباس الفضل بن احمد الاسفرايني. ولكن الحظ لم يقف الى جانب الفردوسي إذ سرعان ما غضب السلطان محمود على هذا الوزير وأودعه السجن ثم قتله وعين بدلاً منه الحسن الميمندي الذي قيل انه لم يكن يتعاطف مع اللغة الفارسية[٣٢].

وقال البعض ان الفردوسي قد بعث نسخة من الشاهنامة في ١٢ مجلداً الى السلطان الغزنوي في غزنين ولم يذهب بنفسه اليه. وهذا الأمر بعيد الاحتمال لعدم وجود مصدر يؤيد ذلك من جهة، ومن جهة اخرى كيف يمكن للفردوسي ان يبعث كتاباً بهذه الأهمية الى سلطان متغطرس مغرور أوصله شعراء البلاط الى مقام الربوبية، دون ان يذهب معه، ولو على سبيل نيل الصلة والجائزة؟[٣٣].

وورد في «تاريخ سيستان» لمؤلف مجهول ان الفردوسي اخذ يقرأ الشاهنامه على السلطان محمود لعدة ايام. وعندما فرغ منها، قال له السلطان: ليس فيها شيء عدا حديث رستم. وفي جيشي الف رجل كرستم! فأجابه الفردوسي: أطال الله عمر السلطان، أنا لا أدري كم في جيشك مثل رستم، لكن الذي أدريه ان الله لم يخلق عبداً كرستم! فالتفت السلطان لوزيره قائلاً: لقد نال مني هذا الصعلوك![٣٤].

وقيل ايضاً ان السلطان قدّم له جائزة متواضعة لا تتناسب مع عظمة الشاهنامة، الامر الذي أغضب الفردوسي وبعث في نفسه الاستياء، ولذلك قسّم تلك الجائزة بين حمامي وفقاعي. وحينما سمع السلطان بذلك غضب غضباً شديداً وأمر بقتل الفردوسي. فلجأ الفردوسي الى هرات واختبأ فيها لمدة ستة أشهر، ثم سافر من هناك الى طوس ومنها الى طبرستان فأضاف الى الشاهنامة مائة بيت في هجاء السلطان محمود. وذكر النظامي العروضي ان تلك الابيات قد فُقدت فيما بعد ولم يبق منها سوى ستة[٣٥].

ويعتقد المستشرق الشهير «نولد» انّ ذلك الهجاء لم يُنشر في حياة الفردوسي ولم يبلغ مسامع السلطان محمود، وإلّا لما سلم الفردوسي من سطوته[٣٦].

وذكر المؤرخون العديد من الاسباب التي دعت السلطان محمود الى عدم الاحتفاء بالشاهنامة ومنها شيعية الفردوسي أو معتزليته، ومدحه للابطال الايرانيين، وسعي الحاشية والخصوم لدى السلطان.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-29]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1422.8.4.1.9]

بينما يعتقد الدكتور الرياحي ان السبب الرئيس هو ان السلطان محمود لم يكن يفقه اللغة الشعرية[٣٧]. غير ان المعروف عن السلطان محمود انه كان يغدق الاموال ويخلع الخلع على الشعراء، حتى قيل انه قد اجتمع في بلاطه مائة شاعر. وانه كان ينفق سنوياً مبلغ ٤٠٠ ألف دينار على الشعراء والعلماء. وأورد العنصري انه كان يهدي عن كل قصيدة ألف مثقال من الذهب. ويقول الغرضي انه لكثرة ما اعطاهم من دنانير، أصبح الدينار لا قيمة له عندهم[٣٨]! وهنا لابد وأن يُثار السؤال التالي: اذن لماذا وقف السلطان محمود هذا الموقف المشين ازاء شعر الفردوسي، وهو أعظم بكثير من شعر الآخرين؟

ويجيب الدكتور الرياحي على هذا السؤال قائلاً: الحقيقة ان كل هذا لا يدل على ان محموداً كان محباً للشعر ويفقه لغة الشعر. فهو كان بحاجة الى تلك القصائد لأنها تمدحه. فالأموال التي كان يغدقها على الشعراء، هي في الحقيقة اموال للدعاية والاعلام. غير أن الفردوسي كان شخصية اخرى، لم تكن من نوع الغرضي ولا العنصري[٣٩]. وهكذا لا يعتقد الرياحي وآخرون ان شيعية الفردوسي وسنيّة السلطان محمود هي العامل الكامن وراء ما لقيه الفردوسي وشعره من جفاء، وذلك لأن السلطان قد زوج احدى بناته للأمير الشيعي منوجهر بن قابوس. كما انه كان يبعث الصلات والجوائز الى الشاعر الشيعي «الغضائري» من غزنة الى الري.

الشاهنامه بايجاز

من الصعوبة جداً تقديم خلاصة بحجم خلاصتنا هذه لملحمة كبرى مؤلّفة من حوالي ٦٠ ألف بيت شعري، غير اننا وجدنا من الضروري تقديم هذه الخلاصة للقارئ الكريم لكي تكون لديه صورة ولو مجملة عن الشاهنامه. وتضم الشاهنامة في الحقيقة أربع أساطير مسهبة وأساسية وهي: ايرج، ورستم وسهراب، ورستم واسفنديار، وسياوش. وفيها قصص اخرى فرعية مثل: فريدون والضحاك، وزال وروداب، وبيجن ومنيجة.

وطبقاً للشاهنامه، فقد خلق الله تعالى ـ أول ما خلق ـ رجلاً وامرأة هما « مشية» و«مشيانة». ثم وُلد بعد عدة أجيال اول امبراطور في العالم. وتلاه عدد من الأباطرة والملوك، حيث أخذ العالم في عهودهم يسير باتجاه التحضر. وراحت تظهر الاختراعات والاكتشافات، كاكتشاف النار، واختراع اللغات والخطوط، وصهر الحديد، وصناعة الاسلحة، ونسج القماش، والخياطة، والبناء، والطبخ، والزراعة، وتدجين الحيوانات، وبناء السفن، والبراعة في الطب.

وتتحدث الشاهنامة عن شخص يدعى «جمشيد» كان يدعو الناس الى الله، فقبض عليه سلطان جائر يدعى الضحاك فقتله. وقبّل ابليس كتفي هذا السلطان فظهر عليهما ثعبانان، ولم يتمكن أحد من اقتلاعهما عن كتفيه. وتقرر ان يُقدَّم لهما في كل يوم دماغا انسانين لنهدئتهما. ولذلك راح السلطان يقتل في كل يوم اثنين من الناس ليقدمهما طعاماً للثعبانين. وكان من بين القتلى رجل يدعى «اثبين» (في الكتب العربية آثفيان)، وهو من سلالة الملوك، فهربت زوجته وابنه «فريدون» خوفاً من سطوة الضحاك واحتميا بجبل البرز. وكان هناك رجل حداد يدعى «كاوه» له ١٨ ولداً، قتل الضحاك ١٧ منهم وقدم ادمغتهم للثعبانين. وعندما قبض الضحاك على الابن الأخير، فقد كاوه صبره، وذهب الى البلاط طالباً اطلاق سراحه، فأُطلق سراحه. غير أن كاوه لم يكتف باطلاق سراح ولده الأخير، وانما أخذ يدعو الناس الى الثورة على السلطان الجائر. وانضم اليه خلق كثير، واتجهوا جميعاً نحو جبل البرز، وأمّروا فريدوناً عليهم. وتمكن فريدون من الاطاحة بالضحاك وتقلد زمام الامور.

وقسّم فريدون سلطانه في اواخر عهده بين اولاده

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-29]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1422.8.4.1.9]

الثلاثة، فأصبحت ايران ـ وهي القسم الاعظم ـ من نصيب ابنه الأصغر «ايرج»، الأمر الذي أثار حفيظة اخويه «سلم» و«طورا»، فقاما بقتل اخيهما.

وكانت احدى نساء ايرج حبلى، فأنجبت بنتاً، كبُرت وتزوجت، فأنجبت هي الاخرى مولوداً يدعى «منوجهر» فرباه جدّ امه ـ أي فريدون ـ لكي يثأر لولده «ايرج» من ولديه «سلم» و«طورا». وفعلاً افلح منوجهر في قتلهما. ونشبت اثر ذلك حروب ومعارك دامية بين ايران وطوران.

ووُلِد لـ«غرشاسب» أو «سام» الذي كان بطل العالم في عهد «منوجهر»، ولد اسمه «دستان»، وسُمي باسم «زال» ايضاً لأنه وُلد ابيض الشعر. وتزوج دستان بفتاة من ذرية الضحاك تُدعى «رودابه»، فأنجبت ولداً اسمه «رستم».

وعاش رستم في زمن امبراطور ايران المسمى «كيكاووس»، وقد وقع هذا الامبراطور أسيراً في مازندران، فهبّ اليه رستم وأنقذه من الأسر في ملحمة قتاليه رائعة. كما وقع في الأسر ثانية في هاماوران، فانطلق اليه رستم وخلصه من الاسر، وتزوج كيكاووس بـ«سودابه» ابنة سلطان هاماوران وجاء بها الى ايران.

وخلال هذه البرهة التاريخية جرت وقائع قصة سهراب: فقد تزوج «رستم» بفتاة تدعى «تهمينة» بنت ملك «سمنجان»، ولم يمض معها سوى ليلة واحدة حتى عاد الى ايران. وأنجبت تهمينة ابناً أطلقت عليه اسم «سهراب» الذي تحول بمرور الزمن الى بطل شديد المراس، وقلّده ملك «طوران» ـ واسمه افراسياب ـ منصب قيادة الجيش وبعثه الى ايران لحرب رستم. وتقابل الاب «رستم» والابن «سهراب» في مبارزة عجيبة دون ان يعرف أي منهما الآخر، رغم ان الابن كان يعلم ان له اباً باسم رستم. وقتل الوالد ابنه في نهاية المطاف فكانت صدمة عنيفة للأب حينما علم انه قد قتل ابنه! وغضب رستم على الامبراطور كيكاووس الذي لم يخبره بأن سهراباً ولده رغم علمه بذلك، ولذلك خرج من ايران حانقاً متألماً متوجهاً الى سيستان.

وكان لكيكاووس ولد جميل اسمه «سياوش»، وقعت زوجة ابيه «سودابة» في غرامه، فطلبت منه الوصال فأبى ذلك، فاتهمته لدى الامبراطور فأقسم لدى ابيه انه بريء من ذلك فصدّقه ابوه. وسئم سياوش تلك الاوضاع فخرج من ايران قاصداً «طوران»، فتزوج بـ«فرنجيس» بنت الملك افراسياب، ملك طوران. غير ان هذا الملك قام بقتل سياوش في آخر المطاف. وخلّف سياوش ابنين هما «أفرود» الذي قُتِل هو الآخر، و«كيخسرو» الذي عاد الى ايران وأصبح امبراطوراً عليها. ونشبت في عهده معارك ضارية مع اقليم «طوران» قُتل خلالها ملكها افراسياب.

واعتزل كيخسرو الملك بعد فترة، وأصبح «لهراسب» ومن ثم «غشتاسب» ملكين على ايران. وفي هذه البرهة الزمنية ظهر «زرادشت» وآمن به «غشتاسب»، و«اسفنديار» البهلوان. وزحف اسفنديار نحو سيستان لقتال رستم، إلّا انه قُتل على يد رستم.

وبهزيمة داريوش (داريوس) الثالث أمام الاسكندر المقدوني في معركة ايسوس، ينتهي عهد الدولة الكيانية. ثم يبدأ بعد ذلك في ايران عهد جديد هو عهد الدولة الاشكانية، غير ان الشاهنامه اكتفت بعدد من الأبيات وعدد من اسماء الملوك الاشكانيين. وتنفرد الشاهنامة بعد ذلك ـ أي بدءاً بأردشير بابكان وحتى نهايتها ـ بالحديث عن الدولة الساسانية. ورغم ان هذا الجزء من الشاهنامه يضم حشداً من الأساطير وقصص الغرام والبطولة، إلّا انه يحفل ايضاً بالوعظ والنصيحة والحكمة.

الأمثال العربية

لقد صاغ الفردوسي في الشاهنامة الكثير من الامثال

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-29]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1422.8.4.1.9]

والحكم العربية ـ بل وبعض الآيات والأحاديث ـ أمثالاً فارسية، وبلغة فارسية موجزة وفصيحة ومعبِّرة عن روح المثل العربي أروع تعبير. ومنها على سبيل المثال:

* الآية: ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾.

ـ تهمتن بيامد بگسترد پر
به خواهش بر شاه پيروزگر

* الحديث النبوي «خير الامور أوسطها».

ـ به كار زمانه ميانه گزين
چو خواهى كه يابى همه آفرين

* الحديث النبوي «الدنيا مزرعة الآخرة».

ـ يكى مزرعه آن جهان است اين
نظر بر گشاى وحقيقت ببين

* اذا جاء القدر عُمي البصر.

ـ قضا چون ز گردون فروهشت پر
همه زيركان كور گردند وكر

* طلب البعير قرنين فأضاع الأذنين.

ـ كه خر شد كه خواهد ز گاوان سر
به يكبار گم كرد گوش از دو سر

* من حفر بئراً لأخيه وقع فيه.

ـ كسى كو به ره بر كند ژرف چاه
سزد گر كند خويشتن را نگاه

* العجلة من الشيطان.

ـ شتاب وبدى كار اهريمن است
پشيمانى ورنج جان وتن است

* الحق مرّ.

ـ نگر تا چه گويد سخنگوى بلخ
كه باشد سخن گفتن راست تلخ

* جوّع كلبك يتبعك سمّن كلبك يأكلك.

ـ سگ آن به كه خواهنده نان بود
چو سيرش كنى دشمن جان بود

* سيّد القوم خادمهم.

ـ چه گفت آن سخنگوى با فر وهوش
چو خسرو شدى بندگى را بكوش

الهوامش

١ـ علي دهباشي، الفردوسي والشاهنامه، مقال «مختلف العقائد في الشاهنامه»، د. عبد المجيد البدوي، ص ٤٩.

٢ـ الكتاب السابق، مقال «الشاهنامات وشاهنامة الفردوسي»، د. محمد روشن، ص ٢٢٧.

٣ـ الكتاب السابق، مقال «رؤية الفردوسي للعالم»، غلام علي رعدي، ص ١٧٢.

٤ـ المصدر السابق، ص ١٧٦.

٥ـ المصدر السابق.

٦ـ حافظ محمود خان، في معرفة الفردوسي، ترجمة د. شاهد جوهدري، ص ٢٠٠.

٧ـ المصدر السابق، ص ٢٠٣.

٨ـ الكتاب السابق، مقال «دين الفردوسي ومذهبه»، محمد محيط الطباطبائي، ص ٥٢١.

٩ـ الشاهنامه: كلمة فارسية مركبة من مقطعين، الاول «شاه» ويعني الملك، والثاني «نامه» ويعني رسالة. وهي تعني بالمصطلح العربي رسالة الملوك أو سيرة الملوك.

١٠ـ عبد الله بن المقفع، قتله والي البصرة عام ١٤٢ هـ بأمر المنصور العباسي لأسباب سياسية.

١١ـ علي دهباشي، الفردوسي والشاهنامه، مقال «الفردوسي ومكانته»، مجتبى مينوي، ص ٥٣٢.

١٢ـ الكتاب السابق، مقال «حديث حول الشاهنامه»، د. ذبيح الله صفا، ص ٣٠٠.

١٣ـ الكتاب السابق، مقال «الفردوسي وشعره»، محمد علي جمال زاده، ص ١٠٨.

١٤ـ الفردوسي ومكانته، ص ٥٣٢.

١٥ـ عُرِف تاريخ الطبري المترجم الى الفارسية بتاريخ البلعمي نظراً لترجمته تحت اشراف الوزير السامانى ابي علي البلعمي.

١٦ـ ابو منصور الثعالبي النيسابوري (٩٦١ م ـ ١٠٣٨ م)، اديب ولغوي ومؤرخ عباسي، لديه الكثير من المصنفات أهمها: يتيمة الدهر في شعراء اهل العصر، وفقه اللغة، وكتاب الأمثال.

١٧ـ الفردوسي ومكانته، ص ٥٣٤.

١٨ـ الكتاب السابق، مقال «القيمة الادبية للشاهنامه»، د. اسماعيل حاكمي، ص ١١٦.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-29]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1422.8.4.1.9]

١٩ـ الكتاب السابق، مقال «حديث حول الشاهنامه» د. ذبيح الله صفا، ص ٣٠٤.
٢٠ـ الكتاب السابق، مقال «شاهنامة الفردوسي»، د. جلال الدين همائي. ص ٥٩١.
٢١ـ الكتاب السابق، مقال «كلمات حول الفردوسي والشاهنامه». ضياء الدين سجادي، ص ٢٨٠.
٢٢ـ موسوعة دهخدا، ذيل الفردوسي.
٢٣ـ علي دهباشي، الفردوسي والشاهنامه، مقال «القيمة الادبية للشاهنامه» د. اسماعيل حاكمي، ص ١١٨.
٢٤ـ الكتاب السابق «مختلف العقائد في الشاهنامه»، د. عبد المجيد بدوي، ص ٥٧.
٢٥ـ مجتبى مينوي، فردوسي والشعراء، ص ١٢.
٢٦ـ علي دهباشي، الفردوسي والشاهنامه، مقال «الفردوسي وشعره»، محمد علي جمال زاده، ص ٩٤.
٢٧ـ الكتاب السابق، مقال «الفردوسي استاذ التراجيديا»، د. محمود صناعي، ص ٣٠٩.
٢٨ـ د. عبد المنعم الحفني. المعجم الشامل للمصطلحات الفلسفية، ص ٧١٩.
٢٩ـ مقال «الفردوسي استاذ التراجيديا»، ص ٣٢٨.
٣٠ـ علي دهباشي، الفردوسي والشاهنامه، مقال «الفردوسي والطبري»، د. عباس زرياب الخوئي. ص ٢٤٩ ـ ٢٥١.
٣١ـ الكتاب السابق، مقال «كلمات حول الفردوسي والشاهنامه»، ص ٢٧٦.
٣٢ـ الكتاب السابق، مقال «الشاهنامات وشاهنامة الفردوسي»، د. محمد روشن، ص ٢٣٢.
٣٣ـ الكتاب السابق، مقال «الفردوسي وشعره»، محمد علي جمال زاده، ص ٩٩.
٣٤ـ الكتاب السابق، مقال «الشاهنامات وشاهنامة الفردوسي»، ص ٢٣٣.
٣٥ـ الكتاب السابق، مقال «رؤية الفردوسي للعالم»، غلام علي رعدي.
٣٦ـ المصدر السابق.
٣٧ـ الكتاب السابق، مقال «اسطورة الفردوسي ومحمود»، د. محمد أمين الرياحي. ص ٢٣٠٧
٣٨ـ نفس المصدر.
٣٩ـ نفس المصدر، ص ٢٣٨.

* * *

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-29]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1422.8.4.1.9]